الجبل العالي والسهل المنبسط

قصة بقلم يزيد الأمير

عطلة نهاية الاسبوع قربت ، ستبدأ من الغد بعد الظهر ، وهي تشعر بتعب شديد تحتاج راحة تامة وتحتاج في الوقت نفسه الى تسلية تامة، الى تغيير النهج اليومي المستمر . واحتارت هل تبقى في البيت تقرأ وتأكل وتنام دون التقيد بمنهاج قد يتعبها ؟ ام تلبي احد البرامج المعروضة فتعود مجددة نشاطها .. او فاقدة اياه تماما ؟

فكرت الا تخطط ولتفرض الصدف نفسها كما تفعل حين تتمنى وتنتظر وتفكر وتحلم ، ثم تأتي الصدفة ، السيدة الكبرى ، فتذهب الخطط واحلامها وينتهي الانتظار وامانيه .

استعرضت البرامج . هناك اقتراح بتمضية عطلة نهاية الاسبوع في ذاك الفندق البعيد في اعلى الجبل العالي حيث لا كهرباء ولا مذياع ولا هاتف . انه انقطاع تام عن العالم اليومي المتعب ، هي في حاجة الى هذا الانقطاع وهي كذلك في حاجة ، وفي هذا المكان بالذات ، الى صحبة خاصة تملأ النفس بجمال المحل .

تخشى ان تذهب فتستيقظ الوحشة وتقسر على مواجهتها ، فالى اين تهرب ؟ ليت هناك من يجبرها على اختيار برنامج . المصيبة انها تدري تماما ما تريد ! ومن تريد ! وكيف تريد ! ومع كل هذا التيقن ... فليت هنا من يختار لها برنامجا !

ودعيت الى الغداء لدى صديقة عزيزة ، وحين عرفت ان الوليمة واسعة شاملة اعتذرت بارتباطات سابقة .. بارتباطها للذهاب الى ذاك الفندق البعيد في اعلى الجبل العالي . واستقرت على هذا ، تلفظ لسانها صدفة بمنهاج وانتهى الاختيار عندها .

ما كادت تحس ببعض الراحة حتى اخبرت بان هذا المنهاج الغي بسبب زيارة ضيوف مفاجئين ، وعادت اليها الحيرة ، فاكبت على العمل تستعين به . وبانتهاء فترة الدوام توقف العمل وابتدأت عطلة نهاية الاسبوع . تمنت الا يكون الحر شديدا فكان . وفكرت ان تبدأ بقراءة بعض من كتل الكتب المؤجلة فلم تفعل . وانتظرت ولاول مرة ، ان يأتيها ضيوف حتى لو لم يكونوا اصدقاء فجاءوا ولم يكونوا اصدقاء . ما ضرها لو طلبت زيارة اعزاء ؟ .

جاءت جارتهم العجوز . ولم يكن في البيت احد يستقبلها . كان يجب الا تفتح الباب كما تفعل حين تريد ان تخلو الى نفسها . ولم تدر ان كانت حقا تريد الاختلاء بنفسها .

شكت لها الجارة العجوز اولادها . انها تعيش لهم وتنتظر الايام لتفرح بهم فماذا بقي لها الا الامال ؟ قالت هذا وهي تشير الى شعرها الاشيب . واحست هي بقشعريرة وكزت على اسنانها تتأكد من ثبوتها وتلمست شعرها تنعم بسواده ثم انزلت اصابعها الى وجهها تتحسسه. لم تعد تسمع ما تقوله الجارة العجوز ، وتذكرت فجأة ان الغد عطلة ، فلم تدر كيف ولم سألت الجارة عن برنامجها لليوم التالي . فتنفست هذه عميقا قبل ان تعود الى حديث الشكوى من اولادها الذين لا يرضون ان يأخذوها الى زيارة السيدة المقدسة .

بقية الحكايات .

سمعت ابن الجارة يعجب بسياقتها نسبة الى قصر مدة التمرين . فتحت فمها « في الحقيقة .. » ... ثم استدركت « حكاياتك يا خالتي عجيبة وهنيئا لك على ايمانك » . لا تدري كم من قصص الايمان روي قبل ان يلوح لهم السهل المنبسط ، واحست بارتياح . ولم تعد بحاجة الى انتباه وتيقظ . الطريق الفسيح ممتد يسمح لافكارها بالانسياب .

سمعت الجارة تهتف : « ها قد قربت الضيعة المباركة ، ابدأوا بطلب الاماني » . فضحكت عاليا : ما عساهم يقولون لو حدثتهم عن امنيتها الصغيرة التي طالما رجتها ؟ تريد ألا تخرج مفتاح البيت من حقيبتها . ظهر كل يوم تجد الباب مفتوحا او يفتح لها احد افراد اهل البيت الباب وهم يترقبون وصولها من الشرفة .

وظناها تضحك استهزاء بالمكان المقدس فنفت هذا واحست انها تنفي التهمة بشدة وتؤكد ان هذا النوع من عدم الاحترام لحرمة المكان غير وارد عندها ثم .. تعجبت ... لم تخشى ان يظنوا بها هذا ؟

ووصلوا الضيعة اخيرا . كان هناك حشد من الناس متجمعين حول زقاق ضيق وعر لا تنفذ منه غير سيارة واحدة اذا استطاعت . ويرتفع الزقاق فجأة الى تل . كان هذا ما رأته خلال الرؤوس والاجساد. ثم اكتشفت ان الطريق الوعر الضيق المتعالي ذاك مكدسة عليه حجارة باحجام متباينة . توقفت هنا فهي متأكدة من عدم استطاعتها الصعود بسيارتها . وتجمع الناس يسألون اذا كانوا سيذهبون الى زيارة السيدة بالسيارة ام على الاقدام ، وظنت انه لوعورة الطريق يفضل السير ، فسألت عن بعد المسافة اجاب البعض انها تستغرق ربع ساعة بالسيارة ، اما على الاقدام فتتوقف على مساعدة السيدة المقدسة . ما الغد هو يوم عيدها والسيدة تزورها كل ليلة وتذكرها بنذورها . لقد اعطتها كل ما طلبت ولم يعد لها مطلب غير سعادة الاولاد فيجب ان تذهب اليها اولا .

وجدت نفسها تصغي بكل انتباه للحديث الساذج الطيب ثم وجدت نفسها كذلك تعد الجارة باخذها بسيارتها تزوران معا السيدة العذراء.

وابتدأت الرحلة ورافق الجارة العجوز ابنها الشاب . قال انه يخشى على السيارة الجديدة مما قد تتعرض له .

كانت السفرة اطول مما تصورت وبدأت تعد المنعطفات فالوديان ثم التلال ، وبدأ لها الدرب طويلا قبل الوصول الى المكان البعيد وراء السهل المنبسط وفرحت لذلك فهذا تمرين جيد على قيادة السيارات.

ولكن حديث الجارة عن عجائب السيدة المقدسة كاد ان يبعثر تركيز افكارها . صاحب الفرن الغريب اوصى المشتري الجديد الا يشعل النار يوم عيد العذراء ، فالفرن هي حارسته . ولم يصدق الصاحب الجديد الرواية وحاول ايقاد النار فلم تشتعل وحاول ثانية ففشل ، وصب اخيرا تنكة كاملة من النفط ، واذا به ينقلب ماء يخمد الامكانية. ودقت الاجراس تعلن ابتداء الاحتفال بالعيد فركع الناكر واستغفر وتعهد بتكريس هذا اليوم للصلاة . توالت الروايات من الجارة العجوز. وكانت اسنانها الاصطناعية تصطك بتوقيع متتال فتتبعته ولم تفطن الى

علاقة الايمان بالاقدام ؟ قالت هذا بصوت مرتفع فتطلع الكل اليها مستغربين وطلبت منها الجارة ان تستغفر وتستغفر فاجابت : ليسق السيارة غيري ممن هو اكثر مهارة مني .

كانت الساعة الواحدة بعد الظهر والشمس حارقة قريبة والرمال الحمراء تعفر الرؤوس والوجوه وتملأ الخياشيم والرئتين . واهتزت السيارة وزارت وتباطأت ولكنها كانت تمشي .. ثم صادفتهم سيارة واقفة في منتصف الطريق فنزل سائقهم دون استئذان مسرعاً الى السيارة الواقفة يستطلع اخبارها . فتح غطاء الماكنة وحرك من هنا سلكا. وضرب هنا بروزاً ثم اخرج من جيبه ملفا للبراغي اداره هنا وهناك والسيارة محردنة لا تتحرك .

مرت بهم افواج السيارة مثيرة التراب الاحمر وباعثة كل اصوات العنف . نادت على السائق ان يعود ، ان يترك الاخرين وشانهم فاجابها وهو لا يزال يحاول اعادة الحياة الى الماكنة : تتعبين وانت في السيارة. انظري الى الناس يذهبون الى زيارة السيدة حفاة . وتطلعت الى الاقدام: اقدام مجرحة معفرة لشيوخ وشبان وشابات واطفال سائرين او محمولين. اما الجارة وابنها فكانا جامدين يتمتمان وكأنهما غائبان عن الوعي. اعادت النظر الى السيارة الواقفة فرأت امرأة تنزل منها وتمسك بيد رجلها تسحبه وهو ، الرجل ، يستمهلها ليركع اولا ويرفع رأسه الى السماء هاتفا : آمنت بك ايتها المقدسة ، سأفي بنذري وأزورك على قدمين حافيتين في عز الظهر كما وعدت .

عاد السائق وهو حانق : ان يكذبوا اي امر ممكن ، اما الكذب على السيدة المقدسة ... وطلب التوبة لانه حاول تسيير السيارة معاكسا ارادة القداسة . وعادت سيارتهم تشق الطريق وهو يزداد وعورة ويزداد عدد الناس . والحر والغبار يتكاثفان .

من بعيد بدت لهم قبة صغيرة قديمة يعلوها جرس ذو رنين حزين وحول القبة كان حشد كبير من الناس يفترشون الارض يمرغون وجوههم في الرمال الملتهبة ويتضرعون .

واشعلتها الشمس فادارت نظرها تفتش عن فيء ، عن ظل ، عن شمس غير حارقة . اما داخل القبة فمملوء بالناس لا امكانية معقولة لدخوله او فتح طريق لمحاولة العبور . وبينما هي في حيرتها وجدت نفسها داخل القبة وامام الهيكل لا تدري كيف ؟

انسابت رائحة البخور الى رئتيها فزال منهما كل اثر للرمال والاختناق .

الايدي حولها تمتد لتولع الشموع . تذكرت دكانا تمر عليه كل يوم وضع في واجهته كومة من الشموع وعلق لائحة « شموع للنذور » امتدت يدها تمسك شمعة تشعلها ووجدت نفسها تركع على الارض القاسية وتهمس : ايتها السيدة المقدسة . ايتها العذراء النقية انت امرأة تفهمين احاسيس النساء ستطلب منك وستلبين طلبي ... بجوارها كان ابن الجيران مغمضا عينيه وراكعا على الارض يحرك شفتيه بالحاح ، ابن الجيران هذا يحبها ويريد الزواج منها . مطلب لا يمكن حتى التفكير بامكانية تحقيقه . ماذا تراه يطلب من السيدة المقدسة ؟ كادت تمسك به تهزه تذكره ان يطلب تحقيق امنية غيير التي تعرف . فهي لا تستطع الوفاء مهما املته السيدة . امنية ابن الجيران هي متأكدة انها لن تتحقق . واحست بخجل شديد منه ومن السيدة العذراء ... وعادت تكمل دعاءها .. تقول امانيها .. تطلب تحقيق امنيتها !! امنيتها !! نهضت فجأة واسرعت تخرج ورائحة البخور المقدس تملأ رئتيها اللتين كانتا مختنقتين .

في طريق العودة رأت الزوجين يدخلان سيارتهما المعطلة وسارت دون محاولة دفع . لحقتهما بناظريها حين سمعت انجارة العجوز تسأل : ما علينا ، ولكن ماذا طلبت من السيدة المقدسة ؟ اجابت برضى :

ـ لا نعمة تعادل الايمان .

ديزي الامير

تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني

بقلم

عيسى اسكندر المعلوف

وقف على نشره

رياض المعلوف

منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت

توزيع المكتبة الشرقية ساحة النجمة - بيروت